مقاما الخوف والرجاء عند الصوفية

للأستاذ أبو الوفا الغنيمى التفتازانى مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف
بكلية الآداب بجامعة القاهرة

قال تعالى : « يدعون ربهم خوفا وطمعا » وقال تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت »

الخوف والرجاء عند الصوفية مقامان من مقامات السلوك ، وهما بمثابة قسمان نفس السالك فى طريقه إلى الله

فالسالك يتحقق بمقام الخوف حينما يخشى أن يسلبه الله ما هو عليه من أحوال ومقامات لعلمه بأن الله ذو حكم نافذ ومشيئة قاهرة ؛ ومتى أراد أن يسلبها عنه فعل ذلك ، ولا يسأل الله عما يفعل وهم يسألون.

على أن خوف السالك من أن تسلب عنه أحواله ومقاماته لا ينبغى أن يستبد به وعلى السالك ألا يفقد الرجاء فى الله فهو إذا خوف ينبغى أن يعلم أن من وراء خوفه وما به خوف أوصاف المرجو الذى لا ينبغى أن يقنط من رحمته ولا أن يؤيس من منته ، وأن الله ما خوفه إلا ليجمعه عليه ، وليرده بذلك إليه ، وبهذا يكون مقام الخوف موصلا إلى مقام الرجاء.

وقد أفاض شيوخ الصوفية فى بيان معانى الخوف والرجاء . فيظهرنا القشيرى فى رسالته على أن الخوف من الله تعالى هو أن يخاف الإنسان أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » وقال تعالى : « وإياى فارهبون » ، ومدح المؤمنين بالخوف فقال تعالى : « يخافون ربهم من فوقهم » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لا يدخل النار من بكى من خشية الله » وقال صلى الله عليه وسلم : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »

ويشرح لنا القشيرى الخوف من وجهة النظر النفسية قائلا : « الخوف معنى متعلقه فى المستقبل لأنه (أى

الانسان) إنما يخاف أن يحل به مكروه أو يفوته محبوب ولا يكون هذا إلا بشيء يحصل في المستقبل فأما ما يكون في الحال موجودا فالخوف لا يتعلق به ».

وقد جعل أبو علي الدقاق أحد شيوخ الصوفية الخوف على مراتب : الخوف والخشية والهيبة ، فالخوف من شرط الايمان ، قال الله تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » ، والخشية من شرط العلم قال الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، والهيبة من شرط المعرفة . قال الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » .

أما الرجاء فهو كما يقول القشيري . تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في معنى الرجاء عن جبريل عليه السلام قال : قال ربكم عز وجل : عبدي ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئا غفرت لك على ما كان منك ولو استقبلتني بملء الارض خطايا وذنوبا استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالي . وعن أنس بن مالك عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى يوم القيامة أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة شعير من إيمان ، ثم يقول : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتي وجلالي لأجعل من آمن بي ساعة من ليل أو نهار كمن لا يؤمن بي . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله عز وجل . أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هو خير منه ، وإن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة

وسئل أحد الصوفية : ما علامة الرجاء في العبد ؟ فقال : أن يكون إذا أحاط به الاحسان أدام الشكر راجيا لتمام النعمة من الله تعالى عليه في الدنيا وتمام عفوه في الآخرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء استبشار بوجود فضله وقال : ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب

على أنه لا ينبغي أن يستسلم الصوفي للرجاء كما لا ينبغي عليه أن يستسلم للخوف ، ومن أجمل ما قيل في هذا المعنى قول أبي عثمان المغربي : « من

حمل نفسه على الرجاء تعطل ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ومن هذه مرة ».

ويبين لنا ابن عطاء الله السكندرى أن الباعث على مقام الرجاء نظر السالك إلى ما من الله إليه من نعم وأفضال متتالية وعندئذ يقوى أمله ويحسن ظنه بالله أما إذا داوم السالك النظر إلى ما منه إلى الله من معصية ومخالفة فلن يخرج عن نطاق الخوف ، وفى هذا المعنى يقول ابن عطاء الله لمريده السالك : « إذا أردت أن يفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك وإذا أردت أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه ».

وأهم شرط من شروط الرجاء عند ابن عطاء الله أن يقارنه عمل وإلا كان مجرد أمنية والتمنى مخالف للعبودية . وعلى هذا ينبغى على السالك ألا يقف موقفا سلبيا وإنما عليه فى سلوكه بمداومة أعمال طاعته وعبادته التى يتقرب بها إلى الله ، وفى هذا يقول ابن عطاء الله فى حكمة من حكمه المقترنة بالعمق والنفاذ وشمول النظرة : الرجاء ما قارنه عمل وإلا فهو أمنية ».

أليست هذه الحكمة العطائيه فى معنى الرجاء جديرة بأن يفيد منها الناس فى حياتهم اليومية : إن الإنسان منا كثيرا ما ينطوى على نفسه متمنيا لها الأمانى المختلفة فيضيع وقته فى التمنى ولا يصل إلى هدف ما ، ولو قد اشتغل وقت التمنى بالعمل لوصل - أو ساهم على الأقل فى الوصول إلى هذا الذى يتمناه دون ما إضاعة وقت ».

حقا إن الرجاء عند صوفيتنا - وكما ينبغى أن يكون عند جميع الناس - لابد أن يقارنه العمل المتواصل الشاق فى سبيل ما يرجو الإنسان ، وبهذا يكون الرجاء دافعا إلى العمل الإيجابى المنتج وليس دافعا إلى الهروب والتكوص وإضاعة الوقت فى التخيلات والأوهام الكاذبة .

ويبعث الرجاء أيضا عند ابن عطاء الله على مقام الخوف . فالسالك المتحقق بمقام الرجاء يخاف عادة من غيب المشيئة الإلهية ويخاف أن يكون ما هو فيه من الرجاء اختبارا لعقله أو حجابا له عن الله . وفى هذا يقول ابن عطاء الله « وإذا رجوا (أى الصوفية) خافوا يخافون غيب مشيئته الذى هو من وراء رجائهم ، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختبارا لعقولهم ، هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى ما بطن من مشيئته فلذلك استمثار الرجاء خوفهم ».

ويقول ابن عطاء الله عن تحققه هو على الدوام بمقامى الخوف والرجاء وكيفية تعاقبهما على نفسه فى مناجاته ربه « إلهى إن رجائى لا ينقطع عنك وإن عصيتك . كما أن خوفى لا يزايلنى وإن أطعتك ».

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى